المبحث الثانى

المماثلة الجزئية فى الصوائت

● **تمهيد فى التعريف بالإمالة:**

الإمالة فى اللغة مأخوذة من الأصل اللغوى (ميل)، قال ابن فارس: الميم والياء واللام كلمة صحيحة تدل على انحراف فى الشىء إلى جانب منه[١]، وقال الفيومى: مال عن الطريق يميل ميلا: تركه وحاد عنه[٢].

وقد جمع ابن يعيش المعنى اللغوى والإصطلاحى فى عبارة واحدة، فقال: «اعلم أن الإمالة مصدر أملته أميله إمالة، والميل الانحراف عن القصد، يقال منه: مال الشىء، ومال الحاكم، إذا عدل عن الاستواء.

وكذلك الإمالة فى العربية: عدول بالألف عن استوائه، وجنوح به إلى الياء، فيصير مخرجه بين مخرج الألف المفخمة وبين مخرج الياء، وبحسب قرب ذلك الموضع من الياء تكون شدة الإمالة، وبحسب بعده تكون خفتها، والتفخيم هو الأصل، والإمالة طارئة، والذى يدل على أن التفخيم هو الأصل أنه يجوز تفخيم كل ممال، ولا يجوز إمالة كل مفخم، وأيضًا فإن التفخيم لا يحتاج إلى سبب، والإمالة تحتاج إلى سبب، والإمالة لغة بنى تميم، والفتح لغة أهل الحجاز[٣].

وكما تمال الألف إلى الياء تمال الفتحة نحو الكسرة، وتمال الفتحة نحو الضمة، وتمال الألف نحو الواو[٤].

وقد ذكر اللغويون والنحاة والقراء أنواعًا أخرى للإمالة، منها إمالة الضمة

---

(١) المقاييس ٥/ ٢٩٠ (ميل).

(٢) المصباح المنير ٢/ ٥٨٨ (مال).

(٣) شرح المفصل ٩/ ٥٣، ٥٤- المتنبى - القاهرة.

(٤) ينظر الكتاب ٤/ ٤٣٢، وسر صناعة الإعراب ١/ ٥٨، ٥٩، والنشر ٢/ ٣٠، وفى اللهجات العربية ٦٥.

نحو الكسرة كما فى قولهم: «مررت بمذعور» و«ابن بور»[1]، ومنها إمالة الكسرة نحو الضمة كما فى نحو قيل وبيع[2]، ومنها إمالة ما قبل هاء التانيث وما شابهها فى الوقف[3].

وقد ذكروا أن للإمالة أسبابًا، ترجع فى مجملها إلى شيئين: أحدهما الكسرة، والثانى الياء، وكل منهما يكون متقدمًا على محل الإمالة من الكلمة، ويكون متاخرًا عنها، ويكون مقدرًا فى محل الإمالة، وقد تكون الكسرة والياء غير موجودتين فى اللفظ، ولا مقدرتين فى محل الإمالة، ولكنهما مما يعرض فى بعض تصاريف الكلمة، وقد تمال الألف أو الفتحة لأجل ألف أخرى ممالة أو فتحة أخرى ممالة، وقد تمال الألف تشبيها بالألف الممالة، وبسبب كثرة الاستعمال، وللفرق بين الاسم والحرف، فتبلغ الأسباب اثنى عشر سببًا، والله أعلم[4].

والإمالة بأسبابها المذكورة تحقق نوعًا من التناسب أو التقارب بين الحركة الممالة وبين الحركة التى كانت سببًا فى الإمالة، أو تشعر بأصل الممال، أو بما يعرض له فى بعض تصاريف الكلمة، أو بشبه يدل على ذلك الأصل[5].

وهى تفيد أيضًا تحقيق السهولة فى النطق؛ لان اللسان ينحدر بالممال نحو الممال إليه، والانحدار أخف على اللسان مع الارتفاع الموجود فى ضد الإمالة وهو الفتح[6].

وأما نسبة الفتح إلى أهل الحجاز، والإمالة إلى بنى تميم، فليست على إطلاقها؛ لأن بعض هؤلاء وأولئك قد ينطقون بغير ما شاع فى بيئتهم لأسباب تتعلق بطبيعة بلاد العرب، وأنها كانت مفتوحة أمام هجرة القبائل شرقًا وغربًا أو شمالاً وجنوبًا، سعيًا وراء الرزق، أو بسبب ضيق المكان، أو الحروب، أو المصاهرة، أو لأى سبب آخر.

---

(١) ينظر الكتاب ٤ / ١٤٣، وسر الصناعة ١ / ٥٩.
(٢) ينظر سر الصناعة ١ / ٥٩، وإبراز المعانى ٣٢١.
(٣) ينظر الكتاب ٤ / ١٤٠، ١٤١، والنشر ٢ / ٨٢ - ٩٠.
(٤) النشر ٢ / ٣٢.
(٥) السابق ٢ / ٣٥ بتصرف.
(٦) ينظر نفس الموضع من السابق.

وقد أدرك سيبويه ذلك ونبه عليه فى قوله « واعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه، فينصب بعضٌ ما يميل صاحبَه، ويميل بعضٌ ما ينصب صاحبَه، وكذلك من كان النصب من لغته لا يوافق غيره ممن ينصب، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين فى الكسر، فإذا رأيت عربيا كذلك فلا تُرَيَنّه خلط فى لغته، ولكن هذا من أمرهم »[١].

وقد أشار ابن الجزرى إلى أن أئمة القراء قد اختلفوا فى كون الإمالة فرعا عن الفتح أو أن كلا منهما أصل قائم برأسه، لكنهم اتفقوا على أنهما لغتان فصيحتان صحيحتان، نزل بهما القرآن الكريم[٢].

ومن الشواهد على الإمالة فى قراءة ابن وثاب:

قوله تعالى: ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾[المائدة: ١٠٢].

الآية والتى قبلها نزلت فى النهى عن السؤالات الممتنعة التى هى من قبيل التعنت والشطط، مثل سؤال قوم عيسى المائدة ثم كفرهم بها، وسؤال قوم موسى فى شأن البقرة وذبحها، وفى رؤية الله جهرة، وسؤال قوم صالح الناقة، وسؤال قريش آية فلما انشق القمر كفروا وقالوا سحر مستمر[٣]..

وفى هذا الشاهد قراءتان:

الأولى: قراءة الجمهور من القراء السبعة (سألها) بالسين المفتوحة الخالصة الفتح من غير إمالة، وبالهمزة المحققة، ولم ترد فيها الإمالة لعدم وجود السبب المقتضى لها من الكسر أو الياء لا فى اللفظ ولا فى التقدير؛ لأن الجذر اللغوى للفعل هو السين والهمزة واللام.

وقد وصفت قراءة التحقيق هذه بانها الأصل، وبانها اللغة الفاشية[٤]، وإذا

---

(١) ينظر الكتاب ٤ / ١٢٥، وينظر الهامش أيضًا.

(٢) النشر ٢ / ٣١، ٣٢.

(٣) ينظر البحر المحيط ٤ / ٣٨٣ ط ١٩٩٢ – دار الفكر – بيروت.

(٤) الدر المصون ١٠ / ٤٤٥ تحقيق د. الخراط.

سهلت الهمزة فى هذه القراءة كان التسهيل بين بين، أى بين الهمزة والفتحة؛ لأنها همزة مفتوحة وما قبلها مفتوح أيضًا.

الثانية: قراءة يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعى (قد سالها) بالكسرة والإمالة من غير همزة[1]، أى بإمالة الفتحة التى بعد السين نحو الكسرة، ولا يجوز إخلاص الكسرة؛ لأن ما قبل الألف لا يكون إلا مفتوحًا، فهى فتحة ممالة نحو الكسرة.

والسبب فى هذه الإمالة وجود الكسرة المقدرة فى الفعل؛ لأنه من «سال يسال» مثل «خاف يخاف»، والأصل فيهما قبل الإعلال «سَوِل» و«خَوِفَ»، بالواو المكسورة، ثم أعلت لما تحركت وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفا، فالمسوغ للإمالة هو تلك الكسرة التى كانت قبل الإعلال فى الواو.

وقد يكون السبب فى هذه الإمالة أيضًا وجود الكسرة فى بعض تصاريف الكلمة؛ لأنه يقال عند إسناد الفعل إلى تاء الفاعل (سِلْت) بوزن (خِفْت)، فالإمالة وقعت بسبب هذه الكسرة التى بعد السين كما تقع فى خاف لوقوع الكسرة بعد الخاء فى خِفْت[2].

والجذر اللغوى للفعل على هذه القراءة هو السين والواو واللام، وبابه فَعِل يفعل بكسر العين فى الماضى، وبفتحها فى المضارع، والدليل على أن عين الفعل هى الواو وليس الهمزة ما حكاه أبو زيد عن العرب[3]، وحدث به أبو على الفارسى من قولهم «هما يتساولان»[4].

وعلى هذا النهج تحمل قراءة الآية ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] حيث قرئ الفعل (سِلْتُم) بوزن (بِعْتُم)، وعليه يحمل الفعل فى قول حسان:

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما قالت ولم تصب[5]

---

(١) المختصر لابن خالويه ٤١، ونسبت إلى النخعى وحده فى البحر المحيط ٤ / ٣٨٣، والدر المصون ٤ / ٤٤٢ تحقيق الخراط.

(٢) المحتسب ١ / ٢١٩ بتصرف. (٣) الدر المصون ١٠ / ٤٤٥.

(٤) المحتسب ١ / ٢٢٠، واللسان والمصباح المنير مادة: (سال).

(٥) الدر المصون ١ / ٣٩٦ تحقيق د. الخراط.

فالفعل فى القراءة وفى البيت جاء على لغة من يقول « سال يسال » مثل « خاف يخاف »، قال الزمخشرى: « وهى لغة قريش، يقولون: سِلْتَ تَسَالُ، وهما يتسايلان[1]، وذلك وإن كان غير بعيد لما عرف عن قريش من عدم الهمز، إلا أن الصواب فيه « هما يتساولان » بالواو كما حكاه أبو زيد وحدث به أبو على الفارسى، وإثبات الزمخشرى له بالياء راجع إما إلى التحريف، وإما إلى الخطأ فى النَّسْخ[2].

وفى هذا الفعل قراءة ثالثة أثبتها أبو حيان، ونسبها إلى إبراهيم النخعى ويحيى بن وثاب وهى (سِألتم) بكسر السين والهمزة المفتوحة، ثم قال: وهذا من تداخل اللغات[3].

وهو يشير بتداخل اللغات إلى الجمع بين اللغة التى جذرها السين والهمزة واللام، واللغة التى جذرها السين والواو واللام؛ لأن السين المكسورة تدل على أن القارئين قصدا اللغة الثانية، وأرادا أن تكون القراءة (سِلتم) مثل (خفتم)، وحين كسرا السين توهما أنها مفتوحة، فجاءا بالعين همزة مفتوحة[4].

والجمع بين اللغتين فى صيغة واحدة جاء فى بيت قيل عنه: « إنه مثال لا نظير له »[5] وهو قول بلال بن جرير:

إذا ضِفْتَهُمْ أو سأيلتهم وجدْتَ بهم علة حاضِرَهْ[6]

وفيه جمع الشاعر بين الهمزة التى فى « سالته »، والياء التى فى « سايلته »، ووزنه: فعايلتهم[7].

---

(١) الكشاف ٤ / ١٥٦.

(٢) البحر المحيط ١٠ / ٢٧١، والدر المصون ١٠ / ٤٤٥ تحقيق د. الخراط.

(٣) البحر المحيط ١ / ٣٨٠، والمحتسب ١ / ٨٩.

(٤) السابقين، مع تصرف.

(٥) القاموس المحيط ٤ / ٣٩٢ باب اللام فصل السين.

(٦) الرواية فى البحر المحيط ١ / ٣٨٠ (إذا جئتهم وسايلتهم...).

(٧) ينظر القاموس المحيط ٤ / ٣٩٢، وفى المحتسب ١ / ٩٠ وزنه: فعاعلتهم أهـ وهو الصواب الذى يقتضيه القياس الصرفى.

أو الأصل (ساءلتهم) ثم قلب الهمزة ياء، وجمع بين العوض والمعوض عنه، وقدم الهمزة قبل ألف فاعل اضطراراً[1].

والحاصل أن قراءة يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعى: «قد سالها» بالكسر والإمالة، من باب المماثلة الجزئية، أى حدث فيها تقريب الفتحة من الكسرة، أو بتعبير آخر نقول أثرت الكسرة التى كانت فى (سَول) قبل الإعلال، أو التى توجد فى التصريف (سِلْتُ) على الفتحة الموجودة فى (سالها) فحولتها إلى فتحة ممالة نحو الكسرة، ولا يجوز تحويلها إلى كسرة خالصة؛ لأن ما قبل الألف لا يكون إلا مفتوحًا.

والإمالة فى هذه القراءة تحقق نوعًا من التجانس والانسجام بين الحركة الممالة، وبين السبب فى الإمالة، وهو الكسرة المقدرة أو الموجودة فى بعض تصاريف الكلمة.

وقراءة يحيى بن وثاب لهذا الفعل بالإمالة موافقة لما شاع فى البيئة التى كان يعيش فيها وهى الكوفة؛ حيث كانت القبائل البدوية تنزل فيها وفى الأماكن القريبة منها، وموافقة لانتمائه إلى قبيلة بنى أسد بالولاء، وهؤلاء ممن عرف عنهم الإمالة كمظهر من مظاهر السرعة فى الأداء والنطق.

● المماثلة الجزئية فى حرف الشرط «لَوْ»:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ** ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقوله تعالى: ﴿ **لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا** ﴾ [الكهف: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا** ﴾ [الجن: ١٦].

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٨٠، والمحتسب ١ / ٩٠ بتصرف.

حرف الشرط غير الجازم (لو) الأصل فى الواو منه أن تكون ساكنة، شأنه شأن الأدوات المبنية على حرفين نحو هل وبل، وهى تستعمل كذلك ما لم يقع بعدها ساكن، فإذا وقع بعدها ساكن حركت الواو بالكسر على الأصل فِى التخلص من الساكنين، هذا هو الشائع فى الأستعمال، والمطرد فى القياس.

وعلى هذا الأصل وردت قراءة جماعة القراء وجمهورهم وعامتهم، فقرءوا بكسر الواو من (لو) فى الآيات المتقدمة[١].

وهناك قراءة أخرى تضم واو (لو) من الآيات السابقة، وقد نسب الضم فى آية آل عمران إلى الأعمش والمطوعى[٢]، وفى آية الكهف إلى يحيى بن وثاب والأعمش وأبى جعفر ونافع وشيبة[٣]، والمطوعى[٤]، وفى آية المؤمنون إلى يحيى بن وثاب[٥]، وابن أبى إسحاق والجحدرى[٦]، وفى آية الجن إلى يحيى بن وثاب، والأعمش[٧]، والمطوعى[٨].

وهذه القراءة التى تضم الواو من (لو) جرت على خلاف الشائع فى الاستعمال، وعلى خلاف القياس أيضاً؛ ولذا قال ابن جنى: «والضم فى هذه الواو قليل»[٩].

وقد عللوا لضم هذه الواو قبل الساكن بأنها لما أشبهت واو الجماعة المتصلة بالفعل فى قوله تعالى: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ﴾ [البقرة: ١٦] عوملت معاملتها فى كون الضمة هى الأنسب للواو[١٠].

---

(١) ينظر المحتسب ٢/٩٧، ٩٨، والبحر المحيط ٥/١٩٦، ٦/٣٩٥، ٧/١٥٤، ١٠/٣٠٠، والدر المصون ٧/ ٤٦١ تحقيق د. الخراط.

(٢) المختصر لابن خالويه ٢٨، والإتحاف ١/ ٤٨٥.

(٣) البحر المحيط ٧/ ١٥٤.

(٤) الدر المصون ٧/ ٤٦١ والسابق من الإتحاف.

(٥) البحر المحيط ٧/ ٥٧٤، والدر المصون ٥/ ١٩٦ط ١٩٩٤م.

(٦) المختصر لابن خالوية ١٠٠.

(٧) البحر المحيط ١٠/ ٣٠٠، والدر المصون ٦/ ٣٩٥ – ط ١٩٩٤م – الأولى.

(٨) المحتسب ٢/٣٣٣، والدر المصون ١٠/ ٤٩٥ تحقيق الخراط – والاتحاف ١/ ٤٨٥.

(٩) المحتسب ٢/٩٧، ٩٨.

(١٠) الدر المصون ٥/١٩٦، ٦/ ٣٩٥ ط ١٩٩٤ – الأولى.

ولا نبعد عن ذلك كثيراً إذا قلنا إن الواو الشبيهة بالصائت قد أثرت فى الكسرة الواقعة بعدها على قراءة الجمهور، فاجتذبتها إليها، وحولتها ضمة على سبيل المماثلة التقدمية بين شبه الصائت والصائت؛ وإنما كانت الواو هى الأقوى، لشبهها بالصائت من جهة، وبالصامت من جهة أخرى، وقدرتها على الاستقلال عن الحركة، بينما هى لا تستقل عنه أبداً، يضاف إلى ذلك «أن الضمة بعد الواو أخف من الكسرة بعد الواو؛ لأن الضمة من جنس الواو[1]، وبها يتحقق لون من الانسجام الصوتى، ومن التناسب بين الصائت وشبه الصائت لا نكاد نجده بين الواو والكسرة.

وتصنف هذه المماثلة على أنها من باب المماثلة الجزئية؛ لأن الصوت الذى تأثر وهو الكسرة لم يتحول إلى مثل الصوت الذى أثّر فيه وهو الواو الشبيهة بالصائت، وإنما تحول إلى شىء من جنسه، وقريب منه فى المخرج[2].

* * *

(١) ينظر الفتوحات الإلهية ١/ ٢٠.

(٢) ينظر مربع دانيال جونز فى كتب الأصوات.